نظرة تحليلية في ديوان

أغاني الزاحفين

ان كل قصيدة في هذا الديوان ، هي في الحقيقة ديوان قائم بذاته يعبر عن جماع تجربة كل شاعر من الشعراء الذين اشتركوا فيه .. كما تعبر عن وجهة نظره بالنسبة للاحداث العصيبة التي يمر بها عالمنا العربي. والتجربة التي يعبر عنها الشاعر .. تجربة مريرة يعيشها الان .. كما عاشها أب له من قبل . وهو يمهد بالتعبير عنها كي يعيشها ابنه .. ولكن بصورة افضل ، ملؤها الامل والاشراق والتحرر من ربقة الاستعمار البغيض.

والديوان يمتاز بوحدة الغرض .. اذ يهاجم الشعراء جميعا عدوا دخيلا يفرض نفسه بنفسه ، لا يستحي ، ولا يستاذن ، بل يتهجم في تبجح بليد ، أثار بعض الشعراء ، فهاجموه بعنف وكالوا له الصاع صاعين، ولم ينل من شعراء آخرين كانوا واثقين من انفسهم فلم يفلت زمام اعصابهم .

ويمكن اعتبار هذا الديوان منشورا ثائرا كتبه الشعراء بدمائهم الفائرة الفتية وبصفتهم نخبة المثقفين الواعين الذين لا يسمحون لانفسهم بالعيش بمعزل عن وطنهم ومجتمعهم ... بل يتفاعلون بالاحداث .. يتأثرون بها ويؤثرون فيها ويحولون مجرى الفيضان العاتي ليصبح بفضلهم نهرا متدفقا يفيض باليمن والخيرات. بعد ان كان يهدد بالسحق والدمار .

ان هذا الديوان لابلغ دليل على فاعلية الشاعر الحديث الذي لا يعترف بالسلبية والجمالية الجوفاء والفنية المتشنجة .. بل يعي انسانيته ، ويرى في عنقه دينا لا بد له ان يوفيه لشعبه واهله من دمه واعصابه .. اذ تتيح له شفافيته الشعرية ان يرى المستقبل السعيد والحياة الفاضلة فلا يملك الا ان يعبر عنهما ، ويدعو اليهما في ثقة وفي ايمان وفي قوة .

والمضمون الذي نلمسه بين دفتي الديوان ، يتمشى مع الفورة القومية التي تجتاح العالم العربي هذه الايام فتلهبه ، وتجعله يندلع بنيران حارقة ملتهبة تتوعد كل من تسول له نفسه الاقتراب منها على امل اجتناء كسب غير مشروع او ممارسة نفوذ استعماري ، او سلب بترول !.

ويتفاوت التعبير عن مشكلاتنا الحيوية والحلول الممكنة حسب قدرة الشاعر ومدى وعيه السياسي وفهمه لماهية هذه المشكلات فهناك شاعر يرى ان الاستعمار لا يمكن ان يرتدع الا اذا اريقت الدماء ولقي الخونة مصيرهم المحتوم :

اقتل .. واشنق .. لا ترحم ..
لن تبني مدينتك الحره
ان لم يجر الدم (١)

ويؤكد شاعر آخر ان الشعب العربي مسالم لا يريد الحرب :

انني اكره ان اقتل نمله ..
او ليست مثلنا تحيا حياة واحده ..
ولها في الجحر اشياء صغيره ..
ولاطفالي كالنملة اشياء صغيره .. (٢)

غير انه يخوض الحرب مضطرا حتى يحمي شرفه وارضه وحتى يعود السلام من جديد :

انا لا اريد الحرب تجلد خير اعماقي ودمي
لكنني ساخوضها، لاصوغ منها لحن سلم(٣)

اما اذا ركب المعتدى الاثيم رأسه ، وأتى الينا والغدر في عينيه وسلاحه مسدد الى صدورنا ، فلا بد ان يلقى مصرعه ويموت دون ما شفقه

كان حتما ان تموت
ايها الغول الذي القته في ارضي مظله
فاتحا شدقيه مسعورا على كل عزيز
عرضي الغالي واطفالي وارضي
وتراثي . كان حتما ان تموت (٤)

وفي بعض الاحيان ترفرف على ديوان « اغاني الزاحفين » نغمة جديدة هادئة تقوم على الجدل ومحاولة الاقناع .. وهو اقناع الواثق بنفسه الذي يهدد ولا يتوعد .. بل يتحدث في هدوء وايمان بما يقول :

ارجع ، ارجع ..
ارجع لبلادك ، يا ريتشارد
عبثا ، ستحاول .. ان تقنع
عبثا ستحاول .. ان تجد فراغا .. ببلادي
فارجع ارجع
وابحث عنه
في البيت الابيض !!
في رأس زعيمك يا ريتشارد (٥)

والشاعر نفسه يذكر المستعمر ان محاولاته باءت بالفشل الذريع وانها ستلاقي المصير ذاته، ولهذا عليه ان يشد رحاله ويتخذ من تجاربه الفاشلة درسا وعبرة :

كم ذا طوفت .. ألم تتعب ؟
في الشرق الاوسط ، في السودان ، وفي المغرب
هل كان هناك .. سوى المحتج ، سوى المضرب
فارجع ارجع

---

(١) قصيدة « الاردن والوجه الاصفر » للشاعر مجاهد عبد المنعم مجاهد
(٢) قصيدة «كان غولا» للشاعر نجيب سرور
(٣) قصيدة « عودي .. يا امريكا » للشاعر ابراهيم شعراوي
(٤) قصيدة « كان غولا » للشاعر نجيب سرور
(٥) ـ « ارجع ، ارجع » للشاعر محمد مهران السيد

الشعراء المصريين .. تحس بمصريتهم الصميمة تطل من كل بيت .. وتحس انهم يعبرون عن مصر بلادهم .. وعن محنتهم التي عانوهـا أخيرا .. وعما خرجوا به من هذه المحنة .. سواء فى موقفهم من الاستعمار ووعـده عبثا ستحاول ان تقنع

ولكن اذا لم ينفع الاقناع .. فماذا يلاقي الضيف الثقيل ؟.. انها دعوة اليه ان :

عـد يا نكسـون
لا اهـلا يلفظها فمنـا ..!
بل نارا تهدر فى دمنـا
عـد يا نكسـون (٦)

وينال العجب شاعرنا منظرية الفـراغ المزعوم فلا يملك نفسه من تصحيح الاوضاع :

لكننا ـ يا سيدي ـ الرئيس
فى الشرق لا نحس بالفراغ
حياتنا ـ حارس الحياة ـ كلها امتلاء (٧)

والمحنة التي عاشتها مصر ، ورأت فيها وجه الاستعمار السافر بعد ان اضطر مجبرا الـى خلع أقنعته المزوقة ، تلح على الشاعر ، فيقول على لسان شهيد مصري :

ايها الاحيـاء : اني
اطرق الابواب كيما تسـمعوا
صيحتي انا مصري شـهيد
اصل امي فى الصعيـد
وأبي من بور سـعيـد
قتلونا الانجليز . (٨)

وفى نهاية القصيدة يعبر الشهيد عن حيرته مما اصابه على يد المعتدي الغادر :

أنا يحيي .. ابن « بابا »
كنت فى بيتي هنـاك
مثـل انسـان عزيز
انا يحيي .. ابن « بابا »
من ضحايا الانجـليز .

وعندما ينظر الشاعر الى العالم العربي ، يلمس وحدته المتماسكة التي لا يمكن ان تنفصم .. ويرى مدى الارتباط بين هذه البـلاد التي حاول الاستعمار تفريقها دون جدوى :

احرس نجمـك يا شـعب الاردن
ان تسـطع فى قلب سمائك نجمـة
يغمرنا النور بمصر .. بسوريا (٩)

* * *

اما القوالب الفنية التي صبت فيها هـذه الفورة الواعية الهادفة .. فقد ترك الشعراء للتجربة الفنية مهمة تحديدها دون ان يتكلفوا شكلا معينا لا يتمشى مع هذه التجربـة الحية .. فقد تجيء القصيدة فى شكلها الكلاسيكي المعروف بقافية واحدة ، ووزن موحد .. وان كنا نلمس الوحدة العضوية تسري فى كيـان القصيدة وتشـد ابياتها :

انا لا اريد الحرب تقطر بالهوان وبالمذلة
انا لا اريد عظام طفل ، وسدت بنثـار طفـلة (١٠)

ونفس الشيء نراه فى قصيدة على لسـان وطني قبرصي يخاطب زوجته :

يا حبيبي بين جنبي الهوى قلب كبير
نابض بالحب خفـاق وبالحق المرير (١١)

وقد لا يتقيد الشاعر بالشكل الكلاسيكـي المعهـود ، فيستخـدم التفعيلات حسـب ورودها ، دون تقيد بالقافية الا اذا جـاءت عفوا مع اهتمـام بالموسيقى الداخليـة التي تخلق من الابيـات سيمفونية متناسقة :

فلترسمي قيـدي
ولتفتلي قيدا على الايـدي
ولتصنعي ما شئت ما شئت
سجني ، عذابي ، وليكن موتي . (١٢)

ونلمس هذا ايضا فى هذه الابيـات :

والمؤمن لا يلـدغ ابـدا ..
من حجـر اكثـر من مره
وانا مؤمـن . (١٣)

وثمة ملاحظة ما كنت أود ان اشير اليهـا لولا انها تلح علي .

فالديوان يحوي عشر قصائد لعشرة مـن ووعيده او موقفهم من الدول العربية الشقيقة بصفة عامة وعاطفة الاخوة التي تربطهم بها .

ولكنك ترى قصيدتين لشاعرين سودانيين هما جيلي السيد وتاج السر الحسن . وبالرغم من ان الناقد المتذوق لا يمكـن الا ان يعجب بالقصيدتين لما امتازتا به من صدق التجربة والشاعرية المرهفة والوعي العميق .. الا انه يحس بأن وضعهما فى هذا الديوان ليس طبيعيا .. بل ان مكانهما الصحيح فى ديوان للشعر السوداني .. فالشعر السوداني كالشـعر المصري ، وكأي شعر ، لبلد عربي ، له طابعـه الخاص ونكهته المميزة التي يمكن تذوقها على حدة ، ولكن لا يستساغ ان يخلطا بطابع آخر ونكهة اخرى .

هذه ملاحظة عابرة ارجو ان تؤخذ علـى انها مجرد ملاحظة لا اقصد بها الا تسجيـل شعوري الخاص عندما توقفت عند هاتـين القصيدتين قبل ان اقرأ اسمي الشاعرين .. فأرى ان السياق قد انقطع ، وانني فى حاجـة الى جو آخر حتى اتهيأ للاستمتاع بهما .

بقيت كلمة اخيرة ، فالقارىء يلاحظ اني لم اشر الى العيوب التي لا يخلو منها ديوان . ومن الصعب على الناقد ان يخرج بميزات عامة عن شاعر معين وامامه قصيدة واحدة لهـذا الشاعر .

والعيوب التي يلاقيها ديوان « اغـاني الظافرين» بين أحيان متباعدة تنحصر فى الخطابية الحماسية عندما تطغى عواطف الشاعر وحماسته الفوارة على تجربته فتسوقه الى نوع اقـرب الى التحريض والحث منه الى فن مستوعب ينبغي ان يتلاقى التعبير المباشر .

وقد يحدث ان يريد الشاعر التعبير عـن فكرة سياسية فيضعها كماخطرت دون ان يضفي عليها اللـون الفني الذي يستدعيه سـياق القصيـدة .

وفى احيان اخرى يشتط الشاعر فى الحـل المعين الذي يرتأيه للمشكلة التي يعالجها .. او قد يأخذه الخيال فيغالي ويسرح بنـا الى آفاق ابعد ما تكون عن واقعنا الحي .

ومع هذا ففي رأيي ان هذه العيوب الـتي لم تظهر الا لماما فى هذا الديوان لا تقلل مـن قيمتـه الفنية وخاصة انه صدر فى مرحـلة تاريخيـة تحتاج الى دواوين كثيرة مثله .

القاهرة **احمد مختار الجمال**

✱ (٦) ـ قصيدة « عد يا نكسون » للشاعر كمـال عمـار

✱ (٧) ـ قصيدة « رسالة من شاب عربي ، الى الرئيس ايزنهاور » للشاعر عبد المنعـم عـواد يوسـف .

✱ (٨) ـ قصيدة « برعم احرقوه » للشـاعر احمـد عبـد العـال .

(٩) قصيدة « الاردن والوجه الاصفر » للشاعر مجاهد عبد المنعم مجاهد

(١٠) قصيدة «عودي يا امريكا» للشاعر ابراهيم شعراوي

(١١) قصيدة « نور الصباح » للشاعر محمود المستكاوي

(١٢) قصيدة « الاحلام الميتة » للشاعر تاج السر الحسن

(١٣) قصيدة « عد يا نكسون » للشاعر كمال عمـار